

الكنيسة القبطية الكاثوليكية في مئوتها الأولى الهوية والرسالة

الأب موريس يار مارتان البسوعي^٥

تحتفل الكنيسة القبطية الكاثوليكية في السنة الجارية بذكرى تأسيسها المئوتية في العام ١٨٩٨، بعد ستين من تكوين إبرشياتها الثلاث الأولى: في القاهرة، والمنيا وطيطا. ولإدراك هوية تلك الجماعة ومكانتها ودورها في مصر، سوف نتبع بسرعة، في هذا المقال، المراحل التي مرت بها إبان السنوات المئة المنصرمة. ذلك بأن الكاثوليك الشرقيين، المشاركين في الإيمان الواحد، لا يتميز بعضهم عن بعض بالضئوس فقط، بل إنَّ كلاً من جماعاتهم تحمل في مؤسساتها وأفرادها علامات الزمن والبيئة والظروف التي واكبت انطلاقتها ومسيرتها وتطورها. فعلى سبيل المثال، تتميز الطائفة المارونية، التي طالما استوطنت جبال لبنان، عن الطائفة الملكية التي نشأت في مطلع القرن السابع عشر وفي ينة مدينته بين دمشق وحلب، وسرعان ما تفرقت في الشرق الأدنى بسبب ما واجهته من معارضات، في حين نلاحظ أنَّ طائفة الأقباط الكاثوليك، التي نشأت في الحقبة نفسها ويتأثر من الحركة الإرسالية عينها، لم تستكمل تنظيمها إلا بعد نحو قرنين من الزمن^(١).

(٥) باحث في الشؤون المصرية.

(١) أطلب: B. Heyberger, *Les Chrétiens du Proche-Orient au temps de la Réforme catholique*, Ecole Française de Rome, 1994.

يرقى أول ذكر للأقباط الكاثوليك إلى العام ١٧٢٢ في صعيد مصر، وعلى وجه التخصيص في أخميم، حيث تركزت، إلى جانب جرجا، إرسالية الرهبان الفرنسيين منذ أواخر القرن السابع عشر. وبعد عشرين سنة، في منتصف القرن الثامن عشر، تحوّل مطران الأقباط الأرثوذكس في القدس إلى الكيسة الكاثوليكية فكان أول أساقفتها الأقباط، سوى أنه لم يبرح القدس أبدًا... إلا أن إرسالية الفرنسيين راحت تنمو بخنق، لا سيما نواحي أسيوط وطيحا حيث يكثر الأقباط، وتوالى على رأس الجماعة عدد من النواب الرسولين لم ينل معظمهم الرسامة الأسقفية، وكان آخرهم كيرلس منار، العام ١٨٩٥، وقد رُسم مطرانًا على القاهرة في السنة التالية، ثم أصبح أول بطاركة الطائفة.

أولًا: البدايات

ماذا دفع الحبر الأعظم لاوون الثالث عشر، الذي أصدر رسالته العامة في كرامة الكنائس الشرقية (*Orientalium Dignitas*) العام ١٨٩٤، إلى أن يتخذ قراره المذكور أعلاه في شأن الكنيسة القبطية؟ لا بد، لقيم تلك البادرة، من التذكّر بأن مصر كانت آنذاك في أوج عملية تحديثها على جميع الصعد: الثقافي، والاجتماعي والاقتصادي، بتأثير من الحضور الأوروبي الذي تجلّى، فيما تجلّى، بالمتانة السياسية بين فرنسا وإنكلترا، مما أفضى إلى احتلال مصر على يد الإنكليز في العام ١٨٨٢. وكان من نتائج هذا الانتاح على العالم أن ازدحر عمل الإرساليات لا سيما في التربة. فقد أسس المشيخون الأميركيون، الموجودون في مصر منذ ١٨٥٤، مستشفى ومدرسة إكليريكية في أسيوط العام ١٨٦٦، ومن تلك المدينة كانوا يتشرون في الصعيد كلّ حيث أسسوا أغلبية مدارسهم وقد بلغ عددها في العام ١٨٨٠ أربعين مدرسة. وفي ١٨٧٧ أنشئت النيابة الرسولية اللاتينية في الدلتا وسلّمت أمورها إلى جمعية الإرساليات الإفريقية في ليون. وفي ١٨٧٩، طلب لاوون الثالث عشر إلى اليسوعيين تأسيس إكليريكية صفري في القاهرة ليُعدّوا فيها طلاب الإكليريكية الشرقية

في بيروت حيث كانت تتم تنشئة أغلبية الكنيحة المعصرين، ومنها تخريج الأساقفة الأقباط الكاثوليك الثلاثة الأول. وفي ١٨٨٧، أراد اليسوعيون أن يقتربوا من الأماكن التي فيها تنشأ دعوات إكليريكيين، فانتحوا في مدينة العنبا ديرًا كانوا يتطلعون منه إلى المدن الصغرى والنرى المجاورة حيث كانوا يؤسسون المدارس لمناهضة تأثير البروتستانت. وختامًا، أنست في العام ١٨٩٩، بطبعًا، إكليريكية الأقباط الكاثوليك الكبرى.

وعليه فالزمن الممتد بين ١٨٨٠ و ١٩٠٠ هو الزمن الحقيقي الذي فيه تمت فعليًا إعادة تأسيس فنانة الأقباط الكاثوليك، وقد أخذت تنمو باضراد منذ تلك المدة، متعلقة على وجه الخصوص في الصعيد. فني البداية، لم يكن لأيرشية البطريركية، الممتدة على نصف مساحة البلاد، سوى كنيسة في القاهرة، بمحلة درب الجينة، قدمها رهبان القديس فرنسيس، ومصلى في المنصورة، بالإضافة إلى الكنيسة البطريركية في الإسكندرية التي بُنت العام ١٩٠٣. أما إيرشية النيا في الصعيد فكانت تشمل أكثر من عشر رعايا، وإيرشية طبعًا أكثر من عشرين. لذا أنشئت الإكليريكية الكبرى في المدينة الأخيرة هذه^(٢).

وفي ما يلي جدول مقتبس من الإحصاءات العشرية الثلاثة الأول التي تم فيها تعداد سكان البلاد، ويمكن من خلاله تبيّن نمو الطائفة:

(٢) إن سفر حجم الإيرشية البطريركية في مقابل كير إيرشيتي الصعيد يُنشر إلى حد ما الأزمة التي قامت عام ١٩٠٨ فاستقال البطريرك كيرلس مقار لأسباب يغلب الضن أنها كانت مائة وإدارة، وقد رانق تلك الامتنالة مواجهات لم تغل من العنف بين أعضاء الطائفة في القاهرة. وبعد انتماء مقار مدة وجيزة إلى الأرثوذكسية الملكية، تسالغ مع روما في ١٩١١ رعاش عيشة متواضعة في لبنان حيث توفي عام ١٩٢١. وقد أعيد رفاته إلى القاهرة ودفن فيها باحتفال رسمي (راجع: الأنبا يوحنا كابس: الأنبا كيرلس مقار، القاهرة، ١٩٢٧).

الجدول الأول

تعداد الأقباط الكاثوليك بين ١٨٩٧ و ١٩١٧

١٩١٧ ^(٣)	١٩٠٧	١٨٩٧	
	٣٠٢٦	٤٨٩	القاهرة
	٣٩٦	١٠١	الإسكندرية
	٨٥٥	٨٠	الدلتا
			الصحيد
	١٠٥	٠١	الجيزة
	٦١	١٤	المنيا
	٧٧	٣٥	بني سويف
٤٢٣١	١٧٢٢	١١١	المنيا
٦١٥١	٤٣٥٢	٤١٨	أسيوط
٥٧٧٢	٢٧٦٢	٩٢٦	جرجا
٢٥٥٤	١١٣٠	٢٥٤	قنا
	١٠٢٠٩	١٧٥٩	مجموع الصحيد
	١٤٤٨١	٢٤٢٩	المجموع العام

نستج من الجدول السابق أولاً أن الأقباط الكاثوليك كانوا في
الدلتا قليلين جداً، إذا ما قورنوا بمن كانوا في الصحيد. والأقباط عامة

(٣) لم يميز إحصاء ١٩١٧ بين الأقباط الكاثوليك وسواهم من أعضاء الكنائس
الكاثوليكية. لذا لم نذكر سوى الأرقام الخاصة بمحاافظات الصحيد حيث أغلبية
الكاثوليك الساحقة هي من الأقباط.

ويلاحظ إحصاء ١٨٩٧ أن البروتستانت الأقباط كانوا موزعين في البلاد على
النهر التالي: القاهرة: ٨٢؛ الإسكندرية: ٥٠؛ الدلتا: ٥٦؛ الصحيد: ٨٨٠٩.

لسوا في الدلتا إلا نحو ٢٪. ثم نلاحظ نمو عدد الكاثوليك السريع بين ١٨٩٧ و١٩٠٧، ثم تباطؤ هذا النمو بين ١٩٠٧ و١٩١٧^(١). ولئن ازداد عدد الكاثوليك بالقاهرة في العام ١٩٠٧ فسبب ذلك عامل الترحيل بالطراد من الريف إلى المدينة.

ثانياً: التطور

إنطلاقاً من بدايات الطائفة، يمكننا محاولة رسم أهم مراحل تطورها، وقد كان لها دور أساسي في تكوين هويتها الراهنة. فتمت، وفي مرحلة أولى، عملية التأسيس أو، بعبارة أوضح، عملية قيام المؤسسات، تجلّت في ازدياد عدد الرعايا وبالتالي ازدياد عدد الإبرشيات لتأمين خدمة المؤمنين على نحو أفضل. ورافق نمو المؤسسات الكنسية تحرر الإكليروس الإبرشي المتزايد من مساعدات الرهبانيات الإرسالية، كانت أولى مظاهره العملية إنشاء إكليريكية طهيطا. ثم برزت مرحلة الاستجاب - أو الاستقرار - إذ أخذت الطائفة تنمو نمواً طبيعياً غير مرتبط بالعبور من الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية كما حصل في البدايات، فانبوية الثقافية والدينية باتت أمراً راجعاً. وأخيراً اتسمت الطائفة بتزعة قوية إلى التمدين، تسارعت وتيرتها منذ خمسين سنة، وهي وإن كانت من الظواهر التي تتجلى عند جميع الطوائف، إلا أنها تلاحظ خاصة عند الأقليات، فهي مدفوعة، أكثر من الجماعات الأخرى، إلى اليروب من عزلة القرى وصرامة التبادل فيما إلى سعة رحاب المدينة. والإبرشية البطريركية هي، من هذا القبيل، مثال يستحق معالجة خاصة.

(١) يمكن مقارنة هذه الأرقام الرسمية (التي بصمب الشك في صحتها لأن الإدارات كانت آنذاك في عهدة الإنكليز وهم غير منحازين في الشؤون الدينية) بالأرقام التي كان المرسلون والأساقفة يقدمونها في ذلك الزمن، وغالباً ما كانوا يبالغون فيها (أطلب «Les Coptes Catholiques 1880-1920», dans Proche, M. Martin, (Orient Chrétien 40, pp 33-55).

لقد بيّن الجدول السابق أنّ ازدياد عدد الكاثوليك حصل أولاً في إبرشيتي المنيا وطيطلا، وعلى نحوٍ أدق، إذا ما أُطلعتنا على تفاصيل أرقام الرعايا، من المنيا صُعداً إلى نواحي سوهاج: إننا منصفّة الصعيد، حيث كثافة المسيحيين هي الأعظم. وأغلب الرعايا الأولى، التي أُسّست بين ١٨٩٠ و١٩١٥، نشأت في إثر مبادرات قام بها قسّم أو حتى جملة سكّان بعض القرى الأرثوذكس مطالبين، وعلى رأسهم كاهن الرعيّة أحياناً، بمدرسة لأبنائهم. وكانوا من أجل ذلك يتحوّلون إلى الكتلّة، وكثيراً ما كانت المدرسة تقوم مقام الكنيسة أو الكنيسة مقام المدرسة، إلا أنّ ظاهرة تأسيس المدارس - الكنائس هذه بفضل مساعدات المرسلين، توقفت إبان الحرب الكونية العالميّة الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، ثمّ عادت ببطء بين ١٩٢٠ و١٩٤٠ وازدهرت مع إنشاء الجمعيّة الكاثوليكيّة لمدارس انصعيد في العام ١٩٤٠.

وعليه فإنّ نموّ الطائفة الكاثوليكيّة تمّ أولاً على حساب طائفة أرثوذكسيّة أضعفتها، في أثناء حيريّة البطريرك كيرلس الخامس التي طال أمدها (١٨٧٤-١٩٢٥)، انقساماتٍ داخلية بين جماعة من العلمائين العصريين تريد إثبات وجودها من خلال المجلس الملتّي، وإكليروس تقليديّ محدود الثقافة. بيد أنّه ما عثمت أن راحت بعض الجمعيّات العلمائيّة الأرثوذكسيّة تنشئ المدارس بدورها، وكان من انتشار المعاهد البروتستانتية والكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة أن قطع الأقباط في الميدان الثقافي شرطاً ملموساً جعلهم يتقدّمون على مواطنيهم غير المسيحيين، ممّا يفسر تأثيرهم، منذ السنوات ١٩١٠-١٩٢٠ في الوظائف العامّة والمهنيّة الحرّة، تأثيراً يفوق ما يُتّظر من نسبتهم بين مجموع اليكّان.

ولئن أُسّست أولى المدارس والكنائس خاصّة في القرى الصغيرة المعزولة، فقد تبدّل الوضع بدءاً من ١٩٤٠، إذ مالت الكفّة نحو المدن المركزيّة أمثال بني مزار وسمالوط وديروط وصدفا... حيث تدقّق

المهاجرون من الريف. غير أنّ تمرکز الكتلثة هذا لم يتم إلا في مناطق معينة وانطلاقاً من محاور إشعاع محدودة، كمثل المنيا وأبي قرقاص وأسيوط وطهطا، في حين ظلت مناطق أخرى، حيث الوجود الأرثوذكسي كثيف، كمثل صَبَو وأبْتوب، يثنأ عن هذه الحركة. ويمكن اختصار عملية تطور الطائفة، انطلاقاً مما تفرقه طبقات دليل الكنائس الكاثوليكية في مصر، بالجدول التالي:

الجدول الثاني				
رعايا الأقباط الكاثوليك				
الإبرشيات	١٩٢٠	١٩٤٦	١٩٧٥	١٩٩٦
البطريكية (١٨٩٦)	٥	١١	٣×٣٠	٤×٤١
الإسماعيلية (١٩٨٣)				٤+١×٦
المنيا (١٨٩٦)	١١	٢+١٢	٣×٢٣	١×٢٦
طهطا (١٨٩٦)	٢٥	٣١		
أسيوط (١٩٤٧)			٨+٢×٣٤	١+٣×٣٧
سهاج (١٩٤٩)			١٠+٤×٣٢	١+١٨
الأقصر (١٩٨٢)				١١×١٧

+ = إضافة كنيسة يخدمها كاهن رعية أخرى
 × = إضافة رعية يخدمها راهب.

يُضاف إلى الإبرشية البطريكية ٨ كنائس: ٢ في أوروبا، ٢ في أستراليا، ٢ في كندا، ٢ في الولايات المتحدة.

يُضح مما سبق أنّ النمو حصل أولاً في الصعيد. في ١٩٤٧ كانت إبرشية طهطا تشمل كل وادي النيل من مَلأوي حتى أسران، فنقل كرسيها

إلى أسيوط، مركز إرسالية الفرنسيسيين وعاصمة الصعيد. ثم شطرت فتج عن ذلك إبرشية سوهاج في العام ١٩٤٩، وشطرت هذه بدورها العام ١٩٨٢ عند تأسيس إبرشية الأقصر. وهذه الإبرشية، وإن تكن أوسع ميلاتها مساحةً، إلاّ أنها أقلها من حيث عدد الرعايا، لضعف كثافة المسيحيين في الصعيد الأقصى، ولأهميّة دور المرسلين فيها^(د).

ويلاحظ أيضًا من الجدول السابق استقرار توتع الطائفة. فلتن تضاعف عدد الرعايا بين ١٩٤٦ و ١٩٧٥ في أسيوط وسوهاج، فمرّد ذلك إلى أنّ بعض المراكز في القرى جُمِلَ رعايا مستقلّة بسبب تكاثر رجال الإكليروس، وهذا ما ندر بين ١٩٧٥ و ١٩٩٦. وعلى العكس، فالإبرشية البطريكية بدت في حالة نموّ مستمرّ على امتداد السنوات الخمسين الأخيرة، ممّا يتطلّب تسييرًا سريعًا.

٢- الإبرشية البطريكية

رأينا في أعلاه أنّه لم تشمل تلك الإبرشية في مطلع القرن سوى ثلاث كنائس. وفي العام ١٩٢٠ أنشئ فيها اثنان بالقاهرة، ثمّ ازداد العدد بقيام أربع أُخر في العام ١٩٤٦ بأحياء أخذت رقعتها تتسع مع وصول الرافدين من الصعيد: شبرا، الشريّة، القللي، الزيتون، النجالة، وطبما مصر الجديدة. وحصل مثل ذلك في الإسكندرية بمحلّة غيط العنب، ثمّ برزت طنطا وهي كبرى مدن الدلتا. في المقابل، كان الفرنسيسيون في ١٩٤٦ لا يزالون يديرون أمور ١٩ رعية لانيّة: ٣ في القاهرة، ٦ في الإسكندرية، ٤ في مدن الدلتا، و٦ على ضفاف قناة السويس، في حين يتولّى كهنة الإرساليات الإفريقيّة ١١ رعية: ٥ في القاهرة و٦ في الدلتا. وكان الدليل الكاثوليكي، في طبعة ١٩٤٦، يقدر عدد بعض طوائف

(د) ويلاحظ من الجدول السابق أنّ كراسي الأسقفيات أضحت في السنوات الأخيرة في عراصم المحافظات، حيث الحضور مهمّ والظهور مستحبّ. ومن هذا المنطلق تطابقت حدود الإبرشيات وحدود المحافظات ممّا يفتر أنّه، في العام ١٩٩٠، نُقل مركزا ملاوي ودير تراس من إبرشية أسيوط إلى إبرشية المنيا. ولا يشئ من القاعدة هذه إلاّ إبرشية الأقصر التي تشمل محافظتي قنا وأسران.

الكاثوليك بمصر على النحو التالي: ١١٨,٠٠٠ لاتيني - ومعظمهم في القاهرة والإسكندرية والدلتا -، و ٦٠,٠٠٠ قبطي وغالبيتهم تعيش في الصعيد.

بيد أن هذا الواقع أخذ يتبدل جذريًا في الخمسينيات، لا سيما بسبب رحيل الأجانب الكثيف بدءًا من ١٩٥٦. فمن جراء الهجرة هذه تدرت عدد المديريات الرسولية اللاتينية من ثلاث مديريات (مصر الجديدة، الإسكندرية، القناة، وكانت معظم الإرساليات مرتبطة بها) إلى اثنتين، ثم إلى واحدة في وقتنا الحاضر. واستمر إنشاء رعايا قبطية في أحياء القاهرة الآخذة بالتوسع: الجيزة، إنبابة، شبرا الخيمة، عزبة النصارين، المطرية، عين شمس، وفي مثيلاتها من أحياء الإسكندرية: بأفوس، سيدي بشر، الحضرة، في حين انتقلت جميع رعايا الإرساليات الإفريقية بالدلتا إلى الإبرشية البطريركية، وحصل الأمر نفسه في ما يتعلق برعايا القناة، مما أفضى إلى تأسيس إبرشية الإسماعيلية في العام ١٩٨٣.

وفي الوقت الحاضر تضم الإبرشية البطريركية ٢٠ رعية في القاهرة، ١٠ في الإسكندرية، ٥ في مدن الدلتا، يضاف إليها ٣ في مراكز محافظات مرسى مطروح، بني سويف والفيوم - علما أن الرعيتين الأخيرتين اقتطعتا من إبرشية المنيا - و ٣ في مدن صغيرة إلى شمال غرب القاهرة. واستوجب هذا النمو إقامة أسقف معاون لمحافظة الجيزة والفيوم وبني سويف في العام ١٩٨٨.

إن الإبرشية البطريركية أنموذج واضح تدر من خلاله كيفية نمو طائفة الأقباط الكاثوليك: فتوسع المؤسسة، والاستتلال عن الرهبانيات الإرسالية، وخاصة الانتقال إلى المدن، هي ظواهر ثلاث كانت في أساس تكوين هذه الإبرشية وسواها من الإبرشيات. إلا أن ازدياد عدد الرعايا لا يعني ازدياد نسبة الأقباط الكاثوليك في مصر، إذ إنه خاصة نتيجة النزوح من الريف إلى المدينة.

ثالثاً: اليوم

أما اليوم، وانطلاقاً من مسيرة طائفة الأقباط الكاثوليك الرابنة، فتساءل: ما هي سماتها الخاصة التي تُبرز هويتها، وبالتالي تحدّد مكانتها ودورها في خدمة مسيحيي البلاد وخدمة مصر على حدّ سواء.

أولاً، لا بدّ من ملاحظة ضالّة وجودها. فكم هم الأقباط الكاثوليك اليوم في مصر؟ وأكاد أقول: كم هم «الكاثوليك» جميعاً؟ لأنّ عديد أبناء سائر الكنائس الكاثوليكية حو، بالنسبة إلى نظيره في الكنيسة القبطية، قليل جداً. فالدليل الكاثوليكي (طبعة ١٩٩٦) يعرض رقماً مدوّراً هو ٢٠٠,٠٠٠، أما التحليلات الديمغرافية فتعيل إلى حصره بحوالى ١٥٠,٠٠٠^(٦). وهذا الفرق غير كبير إذا ما لوحظ أنّ الأقباط الأرثوذكس هم، بحسب إحصاء العام ١٩٩٦، ٣,٣٤٠,٠٠٠ في حين يتقدرون أنقسم بنحو ثلاثة أضعاف هذا العدد. ومهما يكن فإنّ الكاثوليك هم أقلّية صغيرة جداً ضمن جماعة الأقباط، وهذا ما لا يسهّل العلاقات المتبادلة.

فالكاثوليك، في نظر الأرثوذكس، هم «خارج يخالفون الطبيعة»، تركوا كنيستهم في زمن ضعفاً بتأثير من الغرب المستعمر. أما اليوم، نشيد الأرثوذكس نبضة ملحوظة انطلقت منذ أن تبوأ البابا كيرلس السادس (١٩٥٩-١٩٧١) سدة البطريركية. وهم ينشئون الكثير من الإبرشيات الجديدة، ويعثون أديرتيم وقد رُمت وازدهرت بأعداد كبيرة من الرهبان خريجي الجامعات يُذكرن شملة روحانيتهم العريفة. وتنجلى هويتهم المتجدّدة من خلال عنايتهم بتربية النشء الدينيّة في مدارس الأحد، وهي حركة علمانيّة مزدهرة ناشطة، وفي حجّ الرعايا المعتمر إلى الأديرة، وفي وفرة المنشورات التي تروي سير قديسي مصر وعجائبهم فُروي عطش الجماهير وتغذي حياتهم الروحيّة. وبوجيز الكلام، إنّ

R.G. Roberson, *The Eastern Christian Churches*, Rome, 1988. «The Christian Communities in the Middle East», *XXI Secolo*, n°6, oct. 1996, Torino.

الأرثوذكس «مرتاحون لأوضاعهم» وقد استعادوا هويتهم، ولا يشعرون بالحاجة إلى توجيه أنظارهم نحو نظرائهم الكاثوليك أو البروتستانت.

ومن المعروف في هذا السياق أن تكون علاقات جميع الكنائس الأرثوذكسية الوطنية - كمثل كنيسة أوكرانيا أو كنيسة اليونان - بمواطنيها الكاثوليك، متوترة، في حين هي طبيعية مع الكنائس الأرثوذكسية الأخرى. وعليه فاجتماعات اللجنة اللاهوتية المشتركة بين الأقباط الأرثوذكس والكاثوليك، وهي لجنة كانت رسمية أكثر منها فعلية، باتت مجمدة منذ العام ١٩٩٣. ومن أسباب توقفها إجراء فيه من التمييز والرفض ما يصعب قبوله، إذ يفرض، في حال زواج مختلط، أن يُعاد تعميد الفريق الكاثوليكي بحسب الطقس الأرثوذكسي. إلا أن بعض الاتصالات ما زالت قائمة لمناسبة اللقاءات المسكونية الكثيرة، كمثل ما يتم عن طريق «مجلس كنائس الشرق الأوسط» (CEMO) أو «تجمع المعاهد اللاهوتية في الشرق الأوسط» (ATIME) حيث تتحاور مختلف الطوائف الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية.

وفي المقابل، ما هي نظرة الأقباط الكاثوليك إلى طائفة الأرثوذكس؟ يمكن القول إنها تبدلت على نحو ملحوظ. ففي البدايات ساد توجيه الانتقاد الشديد إلى الخرافات الشعبية وجنيل الإكليروس في مقابل تجدد الكاثوليك - تجددًا متأثرًا بروافد اللاتين والغرب - وممارساتهم التنويرية كالتقرب المتواتر من الأسرار، وممارسة طقس «المنالة الأولى» وتلاوة السبحة وإكرام القلب الأقدس وما إلى ذلك. ثم حصل تحوّل، يعود الفضل فيه خاصة إلى المطران ألكسندرس إسكندر، أول مطران على أسبوط، فكانت عودة إلى مزيد من الأصالة القبطية وتبني تقاليدها، لا سيما من جهة الطقس. وعلى سبيل المثال وفي ما يتعلق بالأعياد المتحركة، أحمل التنويم الفريغوري الذي أدخله البطريك مقار، وعُمل مجددًا بالتنويم الوطني اليولياني.

ولما شرع المجمع الفاتيكاني الثاني أبواب الانفتاح المسكوني،

وقامت العلاقات المباشرة بين روما والبطريركيات الأرثوذكسية، وهي مبادرات خففت إلى حدّ معين وظلّفة الوساطة المنوطة مبدئيًا بالكنايس «المتحدة»، ماد التردّد، مدّة من الزمن، حول هويّة الأقباط الكاثوليك. بيد أنّ التشنّج الذي طرأ على العلاقات بين الكنيستين الشقيقتين بفعل مراقب البطريرك شنوده الثالث، بدّد التردّد، وصار الكاثوليك بدورهم «مرتاحين لأوضاعهم»، ينصرفون بالدرجة الأولى إلى خدمة أبناء ملتيم.

وفي الواقع تختلف الجماعة الكاثوليكية عن شقيقتها الأرثوذكسية من عدّة أوجه. أوّلها أنّ رجال الإكليرس فيها هم بأغليّتهم عازبون، خلافًا للتقليد الشرقيّ. ثمّ إنّهُ ليس عند الكاثوليك أديرة، وهذا الأمر يسكان من الأهميّة إذا أخذنا بعين الاعتبار تأثير الروحانيّة الرهبانيّة في التقليد القبطي. كما أنّه ليس عند الكاثوليك من تكريم شعبيّ للتّقيّين المحليّين^(٧). يضاف إلى ذلك، وبفضل انفتاح الكاثوليك على العالم وارتفاع نسبة وجودهم في المدن، مشاركتهم في بعض مسارات «الحداثة» الدينيّة. وهذا الأمر ملموس في تنشئة الإكليرس ياكلييريكيّة المعادي الكبرى (راجع مجلّة صديق الكاهن التي تصدرها هذه الكليّة) وفي معهد العلوم الدينيّة العالي ومعهد التعليم الدينيّ بالكاتيبي، وكلّ من المؤسّستين الأخيرتين تسعى بالأوليّة لتنشئة الرهبان والعلمانيّين المتزوّجين. وهذا الانفتاح ظاهر أيضًا في الإعلام الذي توقّره للطائفة مجلّات مثل رسالة الكنيسة أو الصّلاح. فلا شكّ أنّ قراءة الكتاب المقدّس قراءةً مفتوحةً على العلوم التفسيرية الحديثة، والاطّلاع على الأبحاث اللاهوتيّة المعاصرة، والتفكير في القضايا الثقافيّة والاجتماعيّة التي تواجه الأمتة وعالم اليوم، هي ميزات تشمّ بها طائفة الأقباط الكاثوليك. ويتّج من ذلك أسلوب عبادة معتدل في مظاهره الخارجيّة: لا حفلات «مولد»، لا كثرة عجائب أو مناسك حجّ أو تكريم أيقونات، بل

(٧) يلاحظ في هذه الأمور شيء من التظوّر، إنّ لفتح باب الكهنوت أمام بعض العلمانيّين المتروّجين، أو لإقامة مزارات للتّقيّين في عدد من الرعايا.

تركيز على الإفخارستيا وعلى إكرام السيِّدة العذراء لا سيَّما من خلال «الجيش المريمي».

وفي ما يختصّ بالتعليم، سبق أن نوهنا بدور المدارس، تلك الخدمة الاجتماعية الأساسية، في تطوُّر الطائفة القبطية الكاثوليكية. فالمدرسة، وإن لا يمكن اعتبارها «نشاطاً راعوياً» بالمعنى الحصري، هي خدمة تؤدِّيها الجماعة وتساعد على إدراك الاحتياجات المشتركة بين الجميع. لذا قامت الجمعية الكاثوليكية لمدارس الصعيد، فأخذت على عاتقها مدارس الإرساليات والإبرشيات بدءاً من ١٩٤٠، وما زالت حتى اليوم تدير نحو ثلاثين منياً. إلّا أنّها، نظراً إلى اتِّساع نطاق الخدمات الاجتماعية التي أُضيفت إلى النشاطات المدرسية، اضطرت إلى تبديل اسمها فأصبحت «جمعية الصعيد».

وفي المجال نفسه، إنَّ أوَّل جمعية رهبانية نسائية قبطية (راهبات قلب يسوع المصريات)^(٨)، اللواتي انطلقتن عامَ ١٩١٣ في طَبِطَا بعد انفصالين عن جمعية «راهبات قلب يسوع ومريم الأقدسين» اللبانية المنشأ عندما قرّرت إغلاق مدارسها في مصر، يُشرفنَّ اليوم على تسع مدارس، إحداها في تونس، ويؤمّن إلى ذلك خدمات اجتماعية في ستِّ رعايا، إثنان منياً في السودان. وقد شجّع الأساقفة هذا التطوُّر الملحوظ وباركوه.

ولا بدّ هنا من الإشارة إلى ما طرأ أيضاً من تطوُّر في رهبانيات الرجال والنساء الموجودة الآن بمصر، ولا يخفى ما كان لها من تأثير في نشأة الكتلكة وتطوُّرها. فمع حلول الناصرية ورحيل الأجانب، أخضعت نفسها لعملية «تمصير» جذريّة، أي أنّها زادت عدد أعضائها المصريين، وركّزت نشاطها يوماً بعد يوم على خدمة أشدَّ الناس حرماناً قبل سواهم. وكثير منها، نحو عشرون، فتحت لهم داراً للابتداء في مصر، ولا يندر أن

(٨) هي «الأولى» لآته، في العام ١٩٦٩، انفصل عنها فريق من الراهبات اتخذت اسم «راهبات يسوع ومريم القبطيات»، ونشاطهنَّ شبيه بنشاط الجمعية الأمّ.

يقرع أبواب تلك الأديرة شبان وشابات أرثوذكس يجذبهم نمط الحياة الرهبانية الرسولية الذي ما زال غير مألوف عند الأرثوذكس^(٩). كما أنها وسعت نشاطها، وكان قبلاً يكاد أن ينحصر في الأوساط المبسورة بالقاهرة والإسكندرية، باتجاه القرى أو الأحياء الشعبية في المدن، ملتزمة الخدمات الاجتماعية من مستوصفات، ومحو الأمية، وإصلاح شئون المرأة، وتنشئة مبنية، ونشاطات للشباب وما يشبهها، وكل ذلك بانفتاح على الجميع.

وكان من هذا التطور في حقلَي التعليم والنشاط الاجتماعي عند الكاثوليك، أنه ساهم في تكوين علمائين ملتزمين دينهم المسيحي ومشتحين، يختلفون إلى حد ما في ذلك عن نظرائهم الأرثوذكس المركّزين جهودهم بالدرجة الأولى على طائفتهم، إلا أنهم بدأوا يتحولون هم أيضاً من هذا القبيل. ومثل هذا الانفتاح يدفع إلى تجاوز الحدود الطائفية للقيام بنشاطات دينة واجتماعية مشتركة، إذ يدرك جميع الأطراف القفايا التي نيم الوطن فيسعون معاً لاستجلاء السبل الكفيلة بحلها. ويغلب الغن أن مثل هذا الاختبار، في مثل الأوساط هذه، سيساهم في متابعة العمل المسكوني والحوار بين المذاهب والأديان في مصر، على غرار ما هو حاصل في سراها من البلدان.

نقله إلى العربية

الأب كميل حشيمه

(٩) يذكر هنا بتوع خاص إقليم الفرنسيس في مصر الذي يتقبل في معهده الإكليركي بالجيزة دعوات من السودان.